كيف نحيا بالقرآن

وننتفع به؟

إعداد: خليل محمود اليماني

مركز تفسير للدراسات القرآنية
Tafsir Center For Qur'anic Studies

تجذبك حبال المعاصي..

تسقط سريعًا في شِباكِ إبليس..

كلما سِرتَ في طريق الصلاح حِينًا هَويْت في حُفر المعاصي أحيانًا..

فتراتُ غفلتك أطول بكثير من أوقات صَحْوك..

تريد أن تتغير وتشعر أنك لا تستطيع..

لا تنقصك المعرفة، ولكنك لا تجد الدافع..

قواك الروحية ميتة.. وقلبك في حالة احتضار..

تشتاق للربانيّة.. تتوق لحياة الفؤاد وانتفاضة الروح ولذّة القرب...

ولكن..

كلما اجتهدت للخروج نحو النور وحاولت عاودك السقوط..

تشعر أنك بحاجة إلى معجزة تنتشلك من بئر الغفلة...

انتبه..

إنها بين يديك!! ولكن طالت غفلتك عنها...

هذه المادة ترجع في أصلها إلى الكتابات التي اهتمت بموضوع القرآن وكيفية تدبره ومعايشته، ككتابات فريد الأنصاري ومجدي الهلالي والسنيدي واللاحم وغيرهم، وقد جمعتُ منها ما رأيته مناسبًا، وأضفتُ إليها قليلا مما راكمته التجربة الخاصة، وأعدتُ صياغتها بأسلوب سهل مشوّق؛ حتى تعمّ الفائدة ويتيسّر النفع بإذن الله.

حبل الإنقاذ

نعم، إنه القرآن. ولِمَ العجب، وهو كلام الله، أم تراك نسيت؟! والله تعالى يقول: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ الإسراء: 82 ، فالقرآن إذًا هو العلاج.

إنّ القرآن ليس فقط مجرد كتاب يحوي بين دفتيه حِزمة من التشريعات وجملة من الأحكام؛ إنه كتاب هداية، نزل لهدايتك وجاء لإنقاذك.

﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ الإسراء:9، ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ المائدة: 15-16، فهو إذًا ليس مجرد كتاب ولكنه أداة تقويم وتغيير لكلّ من أحسن الإقبال عليه والتزم بشرط الدخول إليه -كما سنرى-

ولأنه كتاب يَهدي ويُخرج من الظلمات إلى النور؛ فقد جعله المولى -تبارك وتعالى- شديد التأثير في القلوب والنفوس بما يتجاوز أقصى ما قد يصل إليه الخيال.

فهذا القرآن الذي بين أيدينا له قوة تأثير هائلة، لا يمكن للعقل أن يدرك أبعادها أو يحيط بها، ولقد ضرب الله لنا بعض الأمثلة التي تبين ذلك؛ لندرك قيمة المعجزة التي بين أيدينا.

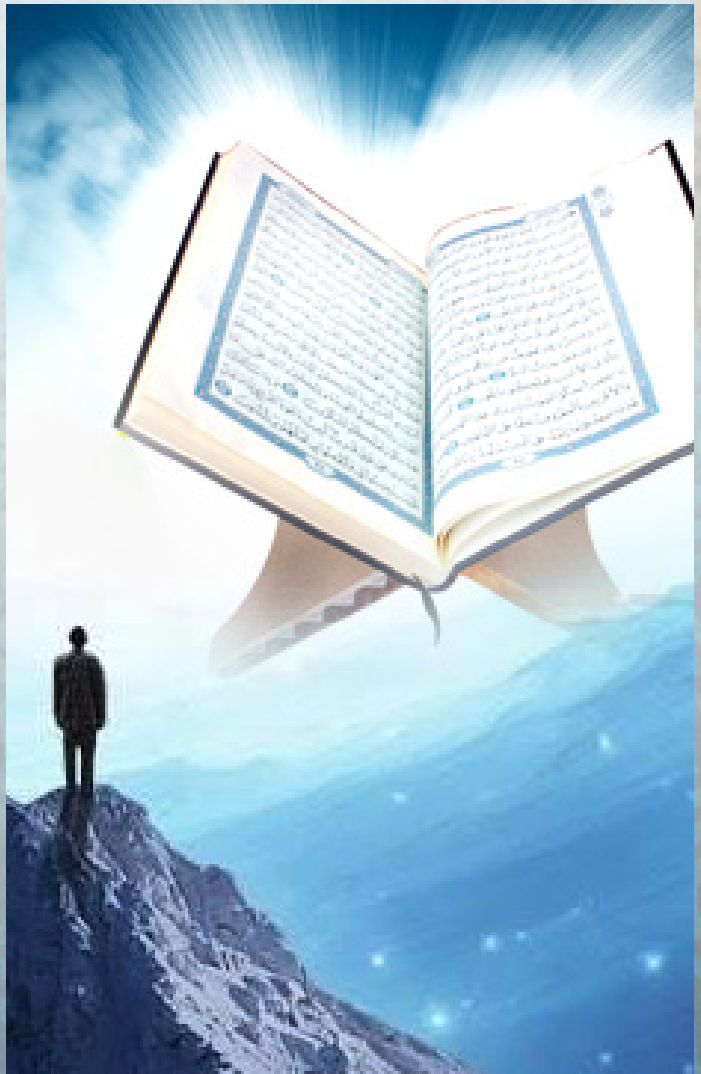

خشوع وتصدع

﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ الحشر:21.

إنه شيء لا يمكن للعقل البشري القاصر أن يدركه؛ فلو أن الجبال أوتيت عقلًا وفهمًا وتَلقّت كلمات القرآن لخشعت وتصدعت، فكيف بقلبي وقلبك لو نفذت إليه أشعة القرآن وسطعت فيه شمسه؟!

جدول الروح ومنبع الإيمان

إن القرآن هو منبع الإيمان ومَعين الروح ولا تستغرب ألم تكن السورة تنزل من القرآن فيقول الرجل لصاحبه:

﴿أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ التوبة:124.

وتأمل معي تلك الآية التي تصف لك صورة فريدة من صور تأثير القرآن على القلوب والأبدان، وهزِّه للمشاعر وقَدْحه لزنَاد طاقات الروح.

﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ﴾ الزمر:23.

فأيّ كلمات هذه التي تفعل هذا بالقلوب والنفوس! وكيف بقلبي وقلبك لو دخل في دائرة تأثيرها؟! وليس هذا كلّ شيء؛ بل هناك ما هو أكثر.

روح ونور

إنّ تأثير القرآن لا يتوقف عند هذا الحدّ؛ فقد وصف الله كتابه بوصفين عجيبين فقال جل وعلا: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ الشورى:52.

الوصف الأول: أنه روح...

والروح هي التي تُحيي الضمائر وتبعث الهمم، هي التي تمدّ البدن بالحركة والنشاط، وإذا خرجت منه سَكَنَ وانتهت حياته وانقطع نشاطه.وهكذا القرآن بالنسبة لك؛ فهو ينفخ فيك روح العبودية، ويسقي أرض قلبك

بماء حياة الربانية، ومن فقد الإحساس به فقد الحياة على الحقيقة؛ ولذا كان من دعاء النبي: «اللهم إني عبدك... أسألك بكلّ اسم هو لك... أن تجعل القرآن ربيع قلبي» مسند أحمد ، والربيع جدول الماء. أي اجعل القرآن يجري في قلبي فيحيا به كما يجري جدول الماء في الأرض فيحييها.

الوصف الثاني: أنه نـور...

والنور هو الذي يكشف للإنسان معالم الطريق حتى لا يتخبط ويتعثر، وهكذا القرآن ينير دربك وصدرك، ويمنحك الرؤية الواضحة حتى لا تضلّ السّير خاصّة في زمان كثرت فيه الأطروحات وارتفعت فيه لأهل الضلال أصوات.

فالقرآن إذًا يمنحك روحًا ونورًا.. وهل هناك أعظم من ذلك؟! فبدون الروح لا يكون حِراك، وبغير النور لا يتم إدراك.

مصدر السكينة

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ يونس:57.

"جاءتكم الموعظة لتحيي قلوبكم، وتشفي صدوركم من الخرافة التي تملؤها، والشك الذي يسيطر عليها، والزيغ الذي يمرضها، والقلق الذي يحيرها؛ جاءت لتفيض عليها البرء والعافية واليقين والاطمئنان والسلام مع الإيمان . الظلال:4/162

فهل أدركت الآن قيمة وعظمة هذا الكتاب الذي بين يديك؟

وكأني بك تسأل سؤالًا: ما الذي أبعدنا عن هذا الكنز؟ ما الذي حال بيننا وبين الانتفاع ببركاته؟

والجواب:

إنّ سبب بعدنا عن حسن الانتفاع بالقرآن هو أننا ضيعنا مفتاح بوابة الدخول إليه.

المفتاح الضائع...التدبر:

التدبر وما أدراك ما التدبر؟! إنه الأمر الذي أنكر الله على الناس تركه وإهماله، فقال تعالى:

﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ محمد:24...

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ النساء:82

التدبر... إنه الغاية التي من أجلها نزل القرآن؛ قال تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ ص:29. وتأمل كيف أنه ربط الانتفاع بالقرآن والتذكر بمواعظه بالتدبر،

والآن وبعد أن عرفت أن التدبّر هو مفتاح الحياة مع القرآن.. فكأني بك قد اشتقت إلى التعرف عليه أكثر.

فما هو التدبر وكيف السبيل إليه؟

إنه نظر القلب، وتفاعل الوجدان مع القرآن... إنه الوقوف مع الآيات ومحاولة تأملها وإطالة البصر في عواقبها وإجالة النظر في لوازمها وما تحمله من رسائل وتفعيلها في حيّز السلوك والواقع (&)؛ وهو أمر يسير لا تحسبه معقدًا.

فإذا كانت الغاية من إنزال القرآن هي التدبر فهذا حتما ليس بالأمر المعقد الذي لا يستطيعه إلا قلة من الناس..بل هو أمر يسره الله لكل الناس ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ﴾ القمر:17 فما كان الله ليُيسّر الكتاب ثم يجعل شرط الانتفاع به صعبا معقدا..وبهذا التيسير العام لكل الناس صار القرآن إما حجة لهم وإما حجة عليهم...فمتى تفكرت في معنى الآيات وتفهمته وتجاوب قلبك معه وأثمر بعد ذلك عملا على جوارحك فقد تدبرت وصار حجة لك وحققت شرط الدخول لنيل بركات القرآن..ولكن اعلم أن التدبر: **واجب.. فلا تحسبه مستحبًا:**

يقول الإمام القرطبي -رحمه الله-: "ودل قوله -تعالى-: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ النساء:82 ، على وجوب التدبر في القرآن ليُعرف معناه" الجامع لأحكام القرآن.

يقول ابن القيم -رحمه الله-: "أنزل الله القرآن ليُتدبر، ويتفكر فيه، ويعمل به. لا لمجرد التلاوة مع الإعراض عنه"

مفتاح دار السعادة:ص:15

(&) ليس الغرض هنا صوغ تعريف للتدبر ولا محاولة الإبانة عن مفهومه بشكل علمي دقيق، فمثل هذا لا يُتطلب في هذا المقام، وإنما المقصود فقط تقريب فكرته وتوضيح صورته.

وقال -رحمه الله- : "تحديق ناظر القلب إلى معانيه، وجمع الفكر على تدبره وتعقله؛ هو المقصود من إنزاله، لا مجرد التلاوة بلا فهم ولا تدبر" مدارج السالكين لابن القيم

ويعلّق الشوكاني -رحمه الله- على قوله تعالى ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ فيقول: "وفى الآية دليل على أن الله -سبحانه- إنما أنزل القرآن للتدبر والتفكر في معانيه، لا لمجرد التلاوة بدون تفكر" فتح القدير.

والآن..كأني بك ستسأل ..
كـيف أتدبر القرآن؟

قبل البداية

يجب أن تمتلأ يقينا أولا بأن الذي سيفتح لنا قلوبنا ليحدث الوصال بينها وبين القرآن هو الله وحده لا شريك له ﴿وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي﴾ سبأ: 50.

وفي الحديث القدسي

يقول تعالى:

"يا عبادي؛ كلكم ضالّ إلا من هديته، فاستهدوني أهدكم"

رواه مسلم.

فلنستعن بالله ولنلجأ إليه ولندعوه بإخلاص، ولا تظنّ أنك بعد أن دعوتَ وسَالَتْ منك الدموع

أن الله سيردّك خائبًا، كيف و ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ الأحزاب:43.

بداية الطريق....الإيمان أولا

ماذا لو ذهب إنسان إلى الطبيب وأعطاه علاجًا.. لا شك أن من المتوقع أنه سيتناول هذا العلاج، ولكن كيف لو تركه وذهب يبحث عن علاج آخر؟! إن هذا ربما يدل على ضعف ثقته في قدرة هذا العلاج على شفائه..

وهذا -للأسف- حال أغلبنا مع القرآن! فأمراضنا كثيرة وعللنا عديدة والله يدلنا على المخرج ويصف لنا الدواء. ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ يونس:57...

﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ النحل:64 ﴿هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ الجاثية:20

ولكننا نعرض عن هذا العلاج!!!

ولذا فالبداية الصحيحة هي الإيمان...

الإيمان بصلاحية القرآن، وأنه فيه الحل لكلّ المشكلات وشتى الأزمات.

فكأني بالقرآن يصيح بك ...

هذا شَرْطي عليك

يجب أن تؤمن وتوقن بأني سأُغيرك

وسأفجر ينابيع الإيمان في قلبك

فأنا: ﴿شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ الإسراء:82.

يقول الإمام البخاري: "لا يذوق طعمه إلا من آمن به"

التبيان في أقسام القرآن لابن القيم

فالقرآن شفاء ورحمة؛ فأقبل عليه إذًا إقبال المريض الباحث عن الشفاء.

الطريق إلى التدبر

استعدادات تمهيدية قبل القراءة

1. استحضر عظمة المتكلم بالقرآن:

يقول محمد بن كعب القُرَظي: "من بلَغه القرآن فكأنما كلّمه الله" موعظة المتقين: 84

يا لها من كلمة يعجز -والله- البيانُ عن نقلها! الرب الجليل «خالق السموات والأرَضِين، مالك الملك والملكوت، الحي الذي لا يموت، مبدع هذا الوجود كله، غيبه وشهادته، ربّ الخليقة كلها، إنسها وجنّها وأملاكها، وما دون هذه وتلك من كائنات ومخلوقات، مما لا يحصره عدّ ولا يحيط به خيال». مجالس القرآن . هذا الرب يكلمك، حقًّا إنه لنبأ.. وأيّ نبأ.. إنه لنبأ عظيم!

فتأمل هذا المعنى دومًا مثنى وثلاث ورباع، فهو وحده كافٍ لهزّ القلب لو أنك وقفت معه.

2. اختر المكان والزمان المناسبين:

إنّ من أراد أن يهتم بأمرٍ ما فإنه يختار المكان الهادئ والفترة التي يشعر فيها بأن نشاطه الذهني وحضوره القلبي في غاية الكمال، فكيف تودّ الانتفاع بالقرآن وأنت تقرأ وأنت متعب وعقلك مشوّش، وتجلس في مكان فيه صخب وضجيج؟!

3. استعن بكتب التفسير

طالع ما تريد قراءته في كتب التفسير الميسّرة قبل أن تقرأه حتى تكون فاهمًا ولو بصورة إجمالية لما تقرأ، وهناك بعض التفاسير الميسرة التي قد تقتني أحدها (&).

(&) كالمختصر في التفسير، من إصدارات مركز تفسير.

إنّ إبليس -الذي أقسم بعزة الله بأن يعمل على غواية البشر وسوقهم معه إلى النار- ما كان ليتركك تحسن الانتفاع بالقرآن، وكيف يتركك وهو يريد إهلاكك! ولذا فإنه سيحاول أن يقطع عليك الطريق؛ «إما بالتسويف، أو بإشغالك بأمر آخر.

فإن قرأت بالفعل دخل عليك من مداخل متعددة:

- مدخل التّعب والنعاس
- مدخل تحصيل أكبر قدر من الحسنات ليدفعك للقراءة السريعة غير المتدبرة.
- مدخل تذكيرك بأمر من أمور الدنيا التي ينبغي عليك القيام بها لتترك القراءة.
- مدخل الانشغال التام بمخارج الحروف وإتقان التلاوة لينصرف ذهنك عن المعاني». تحقيق الوصال بين القلب والقرآن.

ولكن هل تتصور أن الله تركنا بغير سلاح نقاوم به؟ قطعًا لا ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ الأحزاب: 43.

الدرع الواقي

الاستعاذة.. نعم؛ فقراءة القرآن عبادة، وقد أمرنا الله قبل الدخول إليها بأن نستعيذ به طالبين حمايته وعونه: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ النحل:98...

ولا تحسبن الاستعاذة مجرد كلمة تقال؛ وإنما هي حالُ قلبٍ يوقن بفقره وضعفه فيحتمي ويعتصم بربه؛ فاستحضر عند الاستعاذة فقرك وحاجتك لحماية ربك، واعلم أنّ الافتقار هو باب الولوج وأداة العروج (&).

(&) ولا تقولن لقد استعذت فأين النتيجة؟؛ لأن الاستعاذة سيف قاطع، ولكن السيف على قدْر حامله... فكلما حققت الاستعاذة واستشعرت مقامها أفضَت إلى نتيجتها بإذن الله.

نصائح أثناء القراءة

لكي تقرأ وتتدبر بشكل صحيح عليك بالآتي:

1. الاكتفاء بالفهم الإجمالي:

ومن فضل الله العظيم على الناس أنّ هذا المعنى واضح لكلّ الناس في غالب آيات القرآن؛ إذ ليس المطلوب لكي نفهم أن نقف عند كلّ كلمة ونتكلف في معرفة معناها وما وراءها من تفصيلات، بل يكفي المعنى الإجمالي الذي تدلّ عليه الآية حتى يتسنى لنا الاسترسال في القراءة، ومن ثمَّ التصاعد التدريجي لحركة المشاعر؛ فتصل إلى التأثر والانفعال في أسرع وقت.

2. التعامل مع القرآن كأنه يخاطبك أنت:

ولهذا أثر عظيم، يقول الشاعر والمفكر محمد إقبال: «قد كنتُ تعمدتُ أن أقرأ القرآن بعد صلاة الصبح كلّ يوم، وكان أبي يراني، فيسألني: ماذا أصنع؟ فأجيبه:

أقرأ القرآن، وظلّ على ذلك ثلاث سنوات متتاليات يسألني سؤاله فأجيبه جوابي، وذات يوم قلتُ له: ما بالك يا أبي! تسألني نفس السؤال وأجيبك جوابًا واحدًا، ثم لا يمنعك ذلك عن إعادة السؤال من غدٍ؟! فقال: إنما أردت أن أقول لك: يا ولدي؛ اقرأ القرآن كأنما نزل عليك. ومنذ ذلك اليوم بدأت أتفهّم القرآن وأُقبل عليه، فكان من أنواره ما اقتبست، ومن درره ما نظمت». روائع إقبال، لأبي الحسن الندوي.

3.القراءة بتمهل:

فالقراءة السريعة يصعب معها التركيز ومعايشة الآيات.

قال الله تعالى: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾ الإسراء: 106..

﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾ المزمل:4

وكلّ بحسب حاله؛ فهناك من يميل إلى التلاوة، وهناك من يميل إلى السماع، ولا حرج فليختر الإنسان ما يراه مناسبًا لحاله.

4.تكرار وترديد الآية:

لأن الآية كما قيل: مثل التمرة كلما مضغتها استخرجت حلاوتها، فإذا تجاوب قلبك مع آية فأَكْثر من ترديدها...

قال أبو ذر: قام النبي (ص) بآية حتى أصبح، يرددها، والآية:

﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ المائدة:118. رواه النسائي.

ولقد ردد الحسن البصري -رحمه الله- ليلة: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ حتى أصبح، فقيل له في ذلك، فقال: إنّ فيها معتبرًا؛ ما نرفع طرفًا ولا نردّه إلا وقع على نعمة، وما لا نعلمه من نعم الله أكثر. مختصر قيام الليل، للمروزي، ص:151.

5. زمنًا لا كَمًّا:

حدِّد لنفسك وقتًا للقراءة «ساعة مثلًا»، ولا تحدد كمًّا «جزءًا

أو اثنين» حتى لا تسرع في القراءة. يقول الحسن البصري: «يا ابن آدم، كيف يرق قلبك وإنما همتك عند آخر السورة؟!».

مختصر قيام الليل.

6. اقرأ بنية العمل والامتثال:

قال وهب بن مُنَبِّه -رحمه الله-: "من أدب الاستماع سكون الجوارح ... والعزم على العمل ... يعزم على أن يفهم فيعمل بما فهم" الجامع لأحكام القرآن.

قال الآجرّي: «يتصفّحُ القُرْآنَ ليؤدِّبَ به نفسَهُ... متى أكون من المتقين، متى أَكُونُ من المحسنين، متى أكون من المتوكلين، متى أكون من الخاشعين؟». أخلاق حملة القرآن.

ماذا بعد القراءة ؟

العمل العمل... يجب أن نبادر إلى العمل بما قرأنا، وهذا هو مقصود التدبر؛

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾

البقرة: 121 يتلونه أي يتبعونه، قال ابن عباس: "يتّبعونه حقّ اتباعه، يُحلُّون حلاله ويُحَرِّمُون حرامه، ولا يُحَرِّفُونه عن مواضعه" تفسير ابن كثير.

ويقول الحسن بن علي: "إنّ من كان قبلكم رأوا القرآن رسائل من ربهم فكانوا يتدبرونها بالليل ويتفقدونها في النهار" التبيان للنووي.

محفزات..حتى لا ننسى:

بعد أن تُنهي القراءة حاول -لو تيسر لك مثلا - أن تستخرج أكثر آية تأثرتَ بها، ولتتخذها شعارًا لك تسعى لتطبيقه والتعايش معه.

مثال:

قرأت سورة العلق...وكانت هذه لآية ﴿أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى﴾ العلق:14 هي الشعار الذي ستختاره.. إذًا علّقها كملصق في السيارة وفوق الحاسوب وفي مكان العمل، وتذكّرها عند أداء العبادة، وتحدّث عنها في بيتك ومع أصدقائك وعن جوانب استحضار رقابة الله.. وهكذا ستعايشها أكثر.مكان العمل وتذكرها عند أداء العبادة وتحدث عنها في بيتك ومع أصدقائك وعن جوانب استحضار رقابة الله..وهكذا ستعايشها أكثر.

ولكن إياك أن تغفل عن

الأوراد المنظمة

إنّ الطالب إن أراد النجاح بتفوق فحتمًا ستزداد فترات مذاكرته ومكثه مع كتبه؛ ولذا فإننا نغالط أنفسنا حين نريد أن ننتفع بالقرآن ونحن لا نقرأه إلا بمقدار ضئيل وفي أوقاتٍ متباعدة.

فحاجة القلب للقرآن كحاجة البدن للطعام والشراب وحاجة النبات للماء، بل أشدّ، فإذا أردنا أن ننتفع بالقرآن وأن يؤثر القرآن في قلوبنا فليكن جلوسنا معه بقدر يؤدي لتلك الحياة... وتذكّر أنّ قطرات الماء لكي تؤثر في الصخر يجب أن تكون كثيرة ومتتابعة.

والآن سأدلك على عقبات قد تعرقل سيرك وتمنعك الوصول ولكن قبل أن أخبرك بها أودُّ أن أذكّرك بقاعدة:

«يقولون: إن الأحجار في طريق الكُسالى عقبات وفي طريق النوابغ سلالم»

ولذا فالعقبات التي سأذكرها لك يمكنك بسهوله أن تتجاوزها، وأن تجعلها سلالم في طريقك إلى تحسين علاقتك بالقرآن وحسن الانتفاع به.

عقبات التدبر

1.الخـوف من إعمال العقل في القرآن:

إن التدبر لا بد له من فهم، وإن مما يصرف كثيرًا من المسلمين عن تدبر القرآن؛ هو تهيّبهم من الخطأ في فهم معناه، ويستدلون ببعض أقوال السلف في هذا الأمر، مثل قول أبي بكر الصديق: «أيّ سماء تظلني أو أي أرض تقلّني إن أنا قلتُ في كتاب الله ما لا أعلم!»، وقول إبراهيم النخعي: «كان أصحابنا يتّقون التفسير ويهابونه»، ونحو هذه الأقوال.

ولا شك أنّ الاستدلال بهذه الأقوال على ترك تدبر القرآن غيرصحيح؛ لأن القرآن كتاب ويجب أن يفهم الإنسان محتواه.

قال ابن هُبَيرة: «ومن مكائد الشيطان تنفيره عبادَ الله من تدبر القرآن؛ لعلمه أن الهدى واقعٌ عند التدبر فيقول: هذه مخاطرة حتى يقول الإنسان: أنا لا أتكلم في القرآن، تورعًا».

ذيل طبقات الحنابلة.

ويقول ابن القيم -رحمه الله-: «مَن قال: إنّ له تأولًا لا نفهمه، ولا نعلمه، وإنما نتلوه متعبدين بألفاظه؛ ففي قلبي منه حرج». التبيان في أقسام القرآن.

وأما أقوال السلف السابقة فهي تنصبُّ على التفسير بالهوى ومحاولة التلاعب بالنصوص. والتدبر غير التفسير؛ فالأول

كلنا مطالبون به، أما الثاني فيحتاج لتخصص ودراسة (&).

ويحسن أن ننتبه هاهنا أن تدبر القرآن لا يعني البحث عن اللطائف والنكات البلاغية...إلخ وإنما هو معايشة قلبية للآيات ونظر في عواقبها وهو ما يتحقق بالفهم العام للمعنى، ولا بأس أن يراجع المرءُ العلماءَ فيما فهمه من المعاني حال ظهر له شيئا منها حتى لا يقع في فهم خاطئ.

2.الإسراع في القراءة لتحصيل الحسنات:

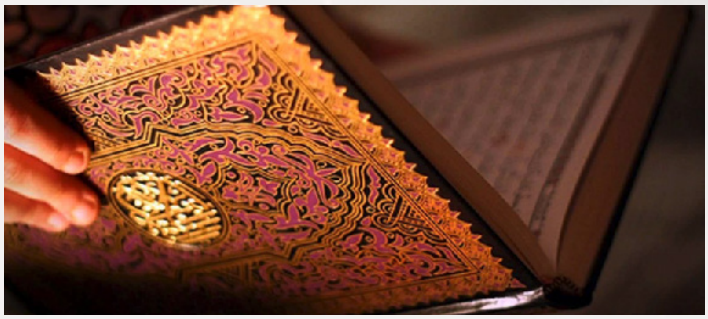

إنّ مما صدّ الناس عن التدبر هو انشغالهم بمسألة تحصيل الأجر الكبير، والخروج بأكبر عدد من الحسنات؛ لأنّ الحرف بعشر حسنات، ولذا يسرعون في القراءة! وهذا قطعًا يعوق التدبر؛ لأن التدبّر يحتاج من الإنسان القراءة الهادئة لمعرفة المراد من الآيات وتنزيلها على النفس والتفاعل معها.

الأستاذ والطالب والكتاب

إنّ حالنا مع القرآن هذا أشبه بحال أستاذ وقَع على كتاب نفيس فأعطاه لتلميذه وطلب منه أن يقرأه، وحتى يشحذ همته أخبره أنه سيعطيه هدية. فماذا حدث؟ انشغل الطالب بالهدية، فأخذ الكتاب وقرأه بسرعة ليحصل على الجائزة. نعم قد يأخذها، ولكنه ما استفاد من الكتاب كما ينبغي... وهذا نفس حالنا؛ فالرسول صلى الله عليه وسلم حدثنا عن فضائل قراءة القرآن حتى يرغبنا في الإقبال عليه، فانشغلنا بكثرة القراءة دون محاولة الفهم، ليصبح القرآن بذلك:

- هو الرسالة الوحيدة التي نقرأها دون أن نسعى لفهم المراد منها.

هو الكتاب الوحيد الذي نقرأه دون أن نحاول أن نفهمه.

3.لغة القرآن

أيضًا مما صرف الناس عن التدبر هو اعتقادهم بأن لغة القرآن صعبة، لا يستطيع الإنسان فهمها. وهذا غير صحيح؛ فلغة القرآن سهلة، والله طلب منّا تدبر كتابه، وهو يعلم أننا لن نكون جميعًا خبراء في العربية وذوّاقين لها. والقرآن معظمه واضح، وبيّن وظاهر لكلّ الناس، وحاول أن تجرب بنفسك... افتح أي صفحة من القرآن، واجمع عدد الكلمات التي تفهمها والتي لا تفهمها، وستجد أن ما تعرف أكثر، وما لا تعرفه تفهمه ولو بصورة إجمالية.وما لا تعرفه تفهمه ولو بصورة إجمالية.

4. قصر الخشوع على أحوال أو آيات معينة

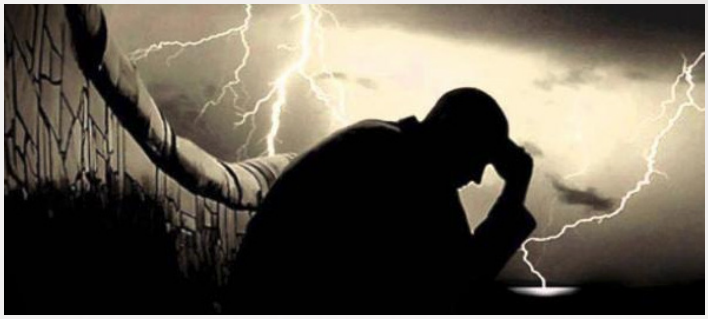

مما أبعدنا عن التدبر أننا اعتدنا أن ننتبه ونتأثر بشدة عند قراءة بعض الآيات؛ كآيات العذاب والنار وأهوال القيامة، وهذا يجعل المرء لا ينتفع بكثير من آي القرآن.

والواجب أن ينتبه الإنسان لكلّ ما يقرأ؛ فلكلّ مقطع من كتاب الله أنوار.

5. اعتبار القرآن خطاب لأجيال مضت:

إذا سمعتَ كلامًا موجهًا إليك؛ فإنك تهتم بفهمه ومعرفة مراد المتكلم منك، أما إذا شعرت أنّ الكلام ليس موجهًا إليك فلن تُعِره اهتمامًا... وهذا ما يحجب كثيرًا منّا عن فهم القرآن؛ فالبعض لا يراه خطابًا موجهًا إليه، وإنما حديث عن أحوال مضت وتواريخ انقضت.

يقول الشيخ عبد اللطيف آل الشيخ: «وربما سمع بعضهم قول من قال من المفسرين: هذه نزلت في عُبّاد الأصنام، هذه في النصارى، هذه في الصابئة، فيظن الغُمر الذي لم يجرب الأمور ويعرفها أن ذلك مختص بهم، وأن الحكم لا يتعدّاهم، وهذا أكبر الأسباب التي تحول بين العبد وبين فهم القرآن» تحفة الطالب والجليس.

فيا من تريد الانتفاع بكلام ربك

تلك عقبات يسيرة، ولكنها -للأسف- حجبتنا عن خير عظيم، عن حياة الروح والأنس بكلام ربّ العالمين، وما أدراك ما كلام رب العالمين! إنه الكلام الذي يتصدع له الصخر، ويرتعش منه الوجدان.

فهل تتخيل دخول قلبك في دائرة تأثير هذه المعجزة؟

فياله من خير لو استحضرته..

ياله من حال لو استشعرته..

إذاً لهانت تلك العقبات...

فهل تعزم معي؟

فإن كنت عزمت فإليك

سنة كونية

الإنسان لا يصل لشيء إلا بعد بذل الجهد والتعب ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ السجدة:24... فالصبر الصبر.. ومن عرف قدر ما يطلب هان عليه ما يبذل.

بشرى

﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ العنكبوت:69... حرّك فقط أقدام العزم، وشمّر عن ساعد الجد، وابدأ وسيأتيك العون.

قاعدة ذهبية

قال أحدهم: "إذا اعتقدتَ أنك قادر على فعل شيء أو غير قادر على فعله فأنت على صواب في الحالين"..فأنت من تحدد سقف طموحاتك وإنجازاتك، أنت لا غير؛ ولذا كتب سالم بن عبد الله بن عمر إلى عمر بن عبد العزيز لما ولي الخلافة: «اعلم يا عمر أنّ عون الله للعبد على قدر نيته؛ فمن خلصت نيته تَمّ عون الله له، ومن نَقصت نيته نقص من عون الله بقدر ذلك». فالأمر إذًا منك يبدأ وإليك يعود، والإمداد على قدر الاستعداد.

واحذر أن من نسيان الإخلاص في الطلب...

فهو أشبه بالضغط على زرّ الكهرباء، أمر قد يبدو لك يسيرًا وبسيطًا، ولكن شتان بين النتائج، إمّا الاسترسال في نورٍ وإمّا ظلمة.

والآن أخي الحبيب...

أقول لك: إنّ الوسائل التي مرّت في هذه الأوراق كان الغرض من ذكرها فتح باب قلبك نحو القرآن لتنطلق في تجربتك الخاصة ومكابدتك الذاتية مع القرآن، فبين الناس مشتركات تفتح باب استفادتهم من التجارب بين بعضهم البعض، ولكن -مع ذلك- يبقى لكلّ منهم أحواله الخاصة، فليس ثَمّ وصفات ووسائل مناسبة للجميع.

فاستفد من التجارب ما استطعت، ولكن عليك أن تجتهد في شقّ طريقك مع القرآن، وأن تبدأ في تجربتك ومكابدتك الخاصة مع هذا الكتاب العظيم بما يناسب حالك.

وأبشر -بإذن الله- إن ثابرت بقرب شروق شمس القرآن على قلبك؛ لتبدأ معها حياة جديدة تكسوها السكينة والطمأنينة، وتغمرها روح جديدة وثّابة توّاقة لفعل الخير، مستشعرة للذة المناجاة والأنس بكلام الله عز وجل.